تقديم الكتاب

بقلم الشيخ/ أحمد الجوهري عبد الجواد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم.

وبعد، فإن سوق الإسلام - بمعناه العام وهو الدين الذي جاء به الأنبياء والمرسلون جميعهم، وبمعناه الخاص وهو الشريعة التي جاء بها المصطفى ﷺ - تقوم على ثلاثة أركان:

١ تلاوة آيات القرآن الكريم.

٢ وتزكية الأنفس.

٣ وتعليم الكتاب والحكمة.

وهذه هي المهام التي كان يبعث بها كل رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام - ومنهم رسولنا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ - كما قال ربنا سبحانه وتعالى عنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، وقد تكرر هذا المعنى في ثلاثة مواضع؛ هذا الموضع في سورة آل عمران، وموضع قبله في سورة البقرة يقول الله تعالى فيه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]، وموضع بعده في سورة الجمعة يقول الله تعالى فيه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، هذه هي المواضع الثلاثة وتنص كلها على: التلاوة والتزكية والتعليم، بهذا الترتيب.

❋ فأما التلاوة فهي قراءة كلام الله تبارك وتعالى، بلسان رسول الله ﷺ، على الناس الذين نفخ الله فيهم من روحه؛ ليحييها من موات ويضيئها من ظلمة، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا..﴾[الأنعام: ١٢٢].

❋ وأما التزكية فهي التنمية والزيادة لما في نفوسهم من بقايا الفطرة وآثار النبوات، وهي التربية والتطهير للأنفس من الشرك والشبهات وسيئ التصورات وللأعضاء من المعاصي والشهوات والنزوات وسائر اللوثات.

❋ وأما التعليم فهو نقل معارف الكتاب والسنة مع الحكمة التي هي ثمرة التعليم بهذا الكتاب، وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة في أوقاتها المناسبة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة بمقاديرها المناسبة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات ووضعها في الأساليب والقوالب المناسبة.

هذه هي الأمور التي تكررت في هذه المواضع الثلاثة، وهذه هي معانيها المقصودة بشيء من الإيجاز والتقريب.

ويقرب من هذه المواضع الثلاثة موضع رابع هو دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يكون من ذريته:

١ أمة مسلمة لله.

٢ ورسول يبعثه الله إلى هذه الأمة المسلمة، وطلب أن تكون هذه الثلاثة الأمور من صفاته.

فقال - هو وابنه إسماعيل - في دعائه بالأمة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[البقرة: ١٢٨]، وقال في دعائه بالرسول: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٩].

وإنما قلت إن هذا الموضع يقارب الموضع الثلاثة وليس هو إياها بسبب ترتيبه المختلف عن ترتيبها، فإن ترتيب المواضع الثلاثة واحد على هذا النحو:

١ التلاوة.
٢ التزكية.
٣ التعليم.

بخلاف الترتيب في دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام فقد جاء على هذا النحو:

١ التلاوة.
٢ التعليم.
٣ التزكية.

بتأخير التزكية على التلاوة والتعليم، أما المواضع الثلاثة فقد جاءت التزكية فيها بالوسط، بعد التلاوة وقبل التعليم.

إن دعاء إبراهيم كان سابقًا على هذه المواضع، وهي الثلاثة إجابته قد جاءت لكن بهذا الترتيب المختلف، وما السبب في هذا الاختلاف يا ترى؟

إن الترتيب - مثلما يقول علماء العربية - يؤذن بقدر الأشياء، والعرب تقدم الأهم في كلامها، والقرآن عربي في ألفاظه وأساليبه، وهذا معناه أن القرآن أراد أن يعرفنا أن التزكية أهم من التعليم، تزكية القلب يجب أن تأتي قبل تعليم العقل، وتطهير النفس يجب أن يسبق حشو الرأس.

ولا يماري أحد في أهمية التزكية في الشرع، إن العلماء الذين استقرأوا الشريعة خلصوا إلى تلخيص مقاصدها في مجموعة من الأمور - حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسب، وحفظ المال، وحفظ العرض - ثم استقرأوا مقاصد هذه المقاصد ولخصوها في ثلاثة هي:

١ توحيد الخالق.
٢ وتزكية الأنفس.
٣ وعمارة الأرض.

وما حازت التزكية هذه المكانة إلا لأنها ثمرة العقيدة ونتيجة الشريعة ولب السلوك، وهل الدين إلا العقيدة والشريعة والسلوك؟! وهل التزكية إلا أهم صفة في المخلوق تجعله أهلًا للقيام بدور الخليفة في الأرض، وهي طريق الفلاح في هذه المهمة العظمى؟!

ولا يحسبن أحد أن التزكية أمر شخصي ينبغي على الفرد أن يأخذ نفسه به لتتحقق له النجاة والفلاح ثم هذا كل ما يطلب، إن التزكية أمر يجب أن يأخذ به الفرد نفسه ويجب أن تأخذ به الأمم أنفسها كذلك، إن تزكية الأمم طريق نجاتها وتفريطها في التزكية طريق اندثارها وهلاكها، ومن يتأمل سورة الشمس يظهر له ذلك جليًّا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 9-15]. إن دسيسة السوء في نفس الفرد والمجموع كانت سبب هلاكهما معًا ولو صلحت فيهما لصلحا معًا ولو فسد الفرد وحده وصلح مجموع الأمة لهلك الفرد ونجت الأمة، وفي الحديث: أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم، إذا كثر الخبث».

هذه نبذة عن التزكية، وأهميتها، ودورها، وخطر غيابها عن حياة الأفراد والمجتمعات.

ومتى تكون تلك التزكية؟ ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال « كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزاوِرة - قد قاربوا البلوغ - فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا».

وفي رواية: «وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان».

هذا النبي ﷺ يعلم فتيان الصحابة الإيمان – المسائل المتعلقة بأصوله: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره – مجملة قبل أن يعلمهم معاني القرآن، فإذا علمهم معاني القرآن بعدها زادهم ذلك التعليم إيمانًا مع إيمانهم، كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، وذلك لِما بين الإجمال والتفصيل من فرق في الأثر والثمرة.

وقد أورد الحاكم في المستدرك خبرًا من رواية عبد الله بن عمر يوضح هذه المعاني، فيقول: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن»، ثم قال: «لقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقَل»، – والدقل هو الرديء من التمر وما لا فائدة فيه .

إن ترتيب الأولويات التي يربَّى عليها النشء يقتضي الحرص على ملئهم بالإيمان قبل ملئهم بالحفظ المجرد والمعلومات.

وهذا هو موضع التزكية ومكانها.

نحن بحاجة إلى تفعيل هذا المنهج النبوي الكريم في حياتنا فقد نأت بنا عنه عوامل كثيرة معلومة - ليس المقام لتفصيلها - وآن لنا أن نرجع إليه تؤزنا هذه النصوص وثقتنا بأن المنهج الذي تشتمل عليه هو الحق، ويؤكد على هذه الثقة ما نصطلي به من حرٍّ جراء الركون إلى غيره من المناهج.

إن مهمتنا - أبناء الإسلام في هذا الجيل - مهمة ثقيلة، ثقيلة في تصحيح العقائد والتصورات، ثقيلة في تبيان الشرائع والأحكام، ثقيلة في شرح الأخلاق والسلوك، ثقيل لأنها ليست مجرد النقل من السطور إلى الآذان، إنما يطلب إلى جوار هذا النقل أن تنقل بلغة العصر وأسلوبه ولسانه وطريقته ووسائله، وهذه مهمة ثقيلة، ثم إنها لثقيلة ثقيلة في غرس ذلك كله في النفوس واللسان والأعضاء لتتحول من بعد مرحلة المفاهيم إلى مرحلة التطبيق، أعان الله أهل الإسلام على هذه المهام وسددهم وأيدهم وأعانهم ووفقهم.

قرأت هذا الكتاب المبارك «ربيهم بآية وحديث» للكاتبة المربية الأستاذة أسماء لبيب، وسعدت بقراءته من بدايته إلى نهايته، تعالج فيه المواقف اليومية للآباء مع الأبناء، بخصوص العبادات والمعاملات والعادات والآداب، وتوضح كيف نتعامل مع تلك المواقف بطريقة تربوية تغير منها وتقومها، وهي تعتمد في ذلك على نور الوحي -كما هو واضح من عنوان الكتاب-: الكتاب والسنة، بإيراد آيات وأحاديث تعالج هذا السلوك، وقد قدمت المربية الفاضلة بين يدي كتابها أجوبة الأسئلة التي لا بد لها من أن تطرأ على أذهان القراء، ومن الواضح أن كتابها هذا -التفصيلي العملي- جاء على مهل، وقد أشارت هي إلى أنها تهتم بمادته منذ عشر سنوات وتنميها وتتممها وترتبها.

وقد سرني يقين الكاتبة في أن ما تقدمه هنا في هذا الكتاب من منهج إنما هو شيء مركزي في حياة كل مسلم، إنه شيء رئيس وأساسي من الأساسيات التي ينبغي أن تقوم عليها حياة المسلم وليس من قبيل الهوامش التي يمكن للمسلم أن يستغني عنها، وكان لهذا أثره في عدة أمور:

١ في بحثها عن كل جزئية من جزئيات الموضوع لتغطيها بغطاء الشريعة وتقدم له العلاج من خلالها.

٢ في تفتيشها عن صحة ما تقدمه من أحاديث وأخبار، لتبعث الثقة في قارئ كتابها بأنه من الشرع، وما دام من الشرع فإنه ملزم لكل مسلمة ومسلم.

٣ في مناقشتها لما يعكر طريقها إلى عقل وقلب قارئها من شبهات أو مجازفات لتصل إليه صافية نقية خلوًا من ألوان الخرافة أو الثقافة الغربية المستبدة، العقبتين اللتين يستسلم لهما المسلمون اليوم وينهزمون أمامهما هزيمة نكراء.

٤ في تقديمها هذا الكتاب بما يحتويه من منهج وأساليب، وما يقصده من غايات وأهداف، وما يدفع إليه من بواعث ودوافع، إلى الوجهة الصحيحة التي ينبغي أن يوجه إليها: الأم، وقد بينت أسباب ذلك.

والكتاب مليء بالمحاسن، والكاتبة قاصدة لها ولغيرها تبعًا من نواحٍ:

❋ من ناحية النيات - ونية المرء خير من عمله.

❋ ومن ناحية الأحاديث والآيات - ومعلوم أن عطاء الأحاديث والآيات لا يتناهى.

❋ومن ناحية التعدد والتنوع - وفي التعدد والتنوع من الثراء ما ليس في الاقتصار على البعض أو نوع.

كتب الله للكتاب القبول وللكاتبة النفع، إنه خير مسؤول.

وقبل أن أضع القلم أحب أن أنوه إلى عدة أمور:

الأول: إنني أدعو المربين - وكل عامل لهذا الدين - يحرص على تقديم النافع الصالح له ويسعى إلى إفادة أبنائه بما يقربهم من مرضاة الله تعالى والجنة ويباعدهم من غضبه والنار إلى أن يعمل إلى جوار ذلك على تأهيل الجيل الثاني من الرواد في مهمته التي يقوم بها، ذلك الجيل الذي يعينه اليوم في مهمته ووظيفته، ويقوم مقامه فيها ويكمل الطريق بها في الغد.

وتلك مسألة مهمة يغفل عنها كثير من المصلحين -العلماء والمربين والدعاة- ولهذا نجد لدينا ثغورًا كثيرة شاغرة بعد غياب روادها بسبب من أسباب الغياب المعروفة.

إن عمل الرائد على إعداد وتأهيل الخليفة الذي يخلفه في مهمته من بعده امتداد لعمره، وزيادة في حسناته، وخدمة لمجاله، وإحسان ليس بعده إحسان لهذه الأمة التي تنتظر من أبنائها الكثير لتنهض من كبوتها وترتفع إلى مكانتها وتعود إلى ريادتها وإنها لحافظ جميلهم هذا ومكافئتهم عليه أعظم المكافئة.

ومن هذه الثغور ثغر التربية الذي يحتاج إلى أضعاف أضعاف العاملين فيه اليوم وهو بحاله تلك، فكيف بمستقبله؟!

الثاني: أدعو المربين إلى الاهتمام بهذه الثنائيات في تقديم الغذاء الفكري لهذا الجيل: التراث والمعاصرة، الجسد والروح، العلم والأدب، المفاهيم والسلوك، الدين والدنيا، الدنيا والآخرة، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالخطاب الشمولي -وتلك خصيصة من خصائص الإسلام- الذي يعالج كل جزئية من جزئيات حياة الإنسان، ولا يغفل جانبًا من جوانبه، في علاقته بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين.

وهذا ما ينبغي أن يهتم به المربي الذي يوجه خطابه إلى الناشئة ليتأصل فيهم هذا المفهوم ويتخرجوا على هذا السلوك في حياتهم منذ البداية.